النص الأدبي في التحليل الأسلوبي

د. موسى شروانة

جامعة منتوري قسنطينة -الجزائر

الملخص:

كان النص الأدبي، في ضوء المقاربة التقليدية ، يقف متسوّلا على موائد عديدة فَقَدَ فيها الكثير من قسماته وملامحه. وكانت السياقات الثقافية، والأطر المعيارية الصارمة هي أهم ما شكل تلك القسمات والملامح. ومع تطور المشهد النقدي المعاصر بفعل عوامل عديدة، أخذ هذا النص يستعيد شخصيته. ويرسم ملامح هويته. وقد لعب المنهج الأسلوبي دورًا هامًا في إعادة تشكيل ملامحه ، وتحديد هويته. وتسعى هذه الدراسة إلى إبراز أهمية هذا المنهج في تحليل النص الأدبي ، وتوضيح طرقه الإجرائية في هذا التحليل ، والكشف عن العقبات الكثيرة التي مازالت تقف في سبيله تحت مسوّغات عديدة منها غرابة المنبت، والغيرة على التراث ، والدفاع عن الهوية الثقافية للأمة.

توطئة:

عندما يستعرض الدارس مختلف المراحل التاريخية التي مر بها الاهتمام بالنص الأدبي، يجد أن هناك رصيدا هائلا من الجهود التي بذلت، كما يجد هناك مناهج ورؤى قد استهلكت من أجل التعرف على طبيعة هذا النص، وعلى مكوناته، وذلك انطلاقا من الملاحظة الدائمة بأن هناك نصوصا تحقق هدفها في استجابة القارئ أو المستمع لها، وهناك نصوص لا تحقق لديه أدنى استجابة. ولما كان الفضول الجمالي هو من بين الدوافع إلى اكتشاف ذلك التفاوت فيما بين النصوص ومعرفة درجة الاستجابة إليها: فإن ذلك كله يعد المحرك

الأساسي للاهتمام بدراسة النص ومحاولة إصدار حكم قيمي عليه في نهاية الأمر.

1- **مفهوم النص**: ذلك هو المسعى الذي كان يناط بالنص الأدبي وما يزال، وليس في ذلك ما يدعو للغرابة أو الدهشة، فالإنسان منذ كان إلى اليوم ظل يحتفي بالكلمة الجميلة والمؤثرة، ويعلو من شأنها ومن صاحبها غير أن عدم اهتدائه إلى اكتشاف قيمتها جعله يضيع عمره، وجهوده في البحث عنها. ومن المعروف أن الكلمة ليست لها قيمة في ذاتها إنما تكون لها قيمة مع غيرها حينما تدخل في علاقات متشابكة مع بعضها. ويطلق على هذه العلاقات الوظيفية المتشابكة ما يعرف في الدراسات النقدية المعاصرة بالتشكيل الجمالي للغة. ولما كان لهذا التشكيل كيان يحمل ملامح خاصة، فقد اختلف الدارسون في تسميته فمنهم من أطلق عليه النص ومنهم من أطلق عليه الخطاب، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة ولهذا يحسن أن نتساءل ماذا نعني بالنص؟، وماذا نعني بالخطاب؟ ومن أين يبدأ كل منهما وأين ينتهي؟.

هناك مفاهيم عديدة للنص، وهي على درجة من الأهمية ولكن عرضها في هذا المقام يخرج بنا عما هو متاح، ولهذا نكتفي منها بما يوضح المفهوم بإيجاز. فالنص عند بعضهم «هو كل وحدة كلامية تخدم غرضا اتصاليا؛ ويمكن أن تتدرج هذه الوحدة من مستوى الكلمة إلى مستوى العبارة إلى مستوى الجملة إلى مستوى النص وهلم جرا»[1].

ومن الواضح أن في هذا التعريف جملة من الشروط، وتبدأ هذه الشروط بالحديث عن النص الذي يتكون من الوحدة الكلامية، وهي اللغة. وهذا يضع حدا فاصلا بين النص الذي يتشكل من اللغة، والنص الذي يتخذ له وسائل غير

---

[1] -يوسف عوض: نظرية النقد الأدبي الحديث، دار الأمين للنشر والتوزيع القاهرة، ط1 1994، ص91.

لغوية كالإشارة والرموز وما إلى ذلك. والنص الذي يتشكل من اللغة يتخذ أبعادا رمزية وجمالية تعطيه خاصية متميزة عن غيره. وهذه الخاصية هي التي كانت ومازالت محور اهتمام الدارسين.

والنص عند آخرين هو « مجموعة من الكلمات والجمل التي تشكل مكتوبا أو منطوقا»[1] ولا يختلف هذا التعريف عن سابقه إلا من حيث الوحدة الكلامية، والتفريق بين المنطوق والمكتوب. فالنص يمكن أن يكون شفويا أو مكتوبا، وهنا يتداخل النص مع الخطاب. فبينما يكون النص في التعريف الأول وحدة كلامية مكتوبة، فإنه في التعريف الثاني يكون بهما معا. وهذا هو التداخل الذي نلاحظه باستمرار في مفاهيم النص أو الخطاب.

وسواء أطلقنا النص على الخطاب أم الخطاب على النص، فإن الأمر عندنا لا يختلف كثيرا فضلا عن أنه ليس بذي أهمية كبيرة؛ لأن الإنسان منذ أن بدأ يتعاطى الكلمة الفنية أنتج فيها نصا أو خطابا وذلك لاقتران، عنده، الشفوي بالكتابي في كثير من الأحيان مثلما هو الحال في المعلقات في الجاهلية، فهي يمكن أن تكون قد قيلت شفويا ثم كتبت أو كتبت ثم ألقيت. وفي هذه الحالة يصبح من الصعوبة بمكان الجزم بالتفريق بينهما. ولا يعني هذا أننا لا نؤمن بالمراحل التي قطعها الإنسان في رحلته وأهمها المرحلة الشفوية والمرحلة الكتابية، وإنما نقول إنهما متداخلتان، ومن الصعوبة الفصل بينهما لما فيهما من التعميم، ولا معنى عندئذ للقول «لا نص بلا قارئ ولا خطاب بلا سامع»[2].

كان هذا طرفا من الجدل على مستوى المفهوم بين النص والخطاب. ولو حاولنا أن نبحث في أصل مفهوم النص، ونربط بين كلمة النص في اللغة، وبينها

---

[1] – محمد عزام: النص الغائب، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001 ص 12.

[2] – عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، نحو بديل ألسني في نقد الأدب، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس 1977 ص83.

في الاصطلاح لوجدنا قدرا من التشابه. فالنص في اللغة جاء من مادة (نص)[1]، وهي تعني الظهور والبروز بصفة عامة ومنه جاءت كلمة (المنصة) و(نصة العروس)[2] وهما تطلقان على المكان الذي تعتليه العروس لتبدو مرتفعة ليراها جميع الناس. ويعتبر هذا حظوة وتميزا لها عن غيرها. والنص الأدبي الذي يتمثل في ذلك المنطوق أو المكتوب يشبه في تميزه وبروزه، العروس على منصتها. ويأتيه هذا التميز والبروز من ذلك التشكيل الجمالي للغة أو من الكيفية التي كتب بها؛ لأن الكيفية هي هوية النص، وهي التي تعطيه قيمته الفنية أو الأدبية.

2- ملامح التحليل الأسلوبي للنص في التراث.

ومنذ أن بدأ الإنسان يتعاطى الكلمة ويوظفها في إطار ما يسمى النص الأدبي، أخذت الاجتهادات بشأنها صورا وأشكالا عديدة ومختلفة لمعرفة قيمة تلك الكلمة داخل ذلك الكيان الذي يسمى النص الأدبي، وتبلور ذلك كله، في نهاية المطاف، في شكل رؤى واتجاهات متعددة. فإذا رجعنا إلى الجاهلية وما تلاها من العصور نتلمس نوعية الاهتمام بالكلمة داخل النص وجدناها أحيانا جزئية لا تخرج عن مجال الاستحسان أو الاستهجان مثل كلمة (الصيعرية)[3] وفي مقابل هذه الأحكام الجزئية نجد أحكاما أخرى عامة تفتقر إلى الدليل المقنع مثل الحكم على القصيدة (النص) بأنها (سمط الدهر)[4] أو أنها (بتّارة)

---

[1] - ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف بمصر. (د.ت) مادة (نص).

[2] -النادي الأدبي بجدة: قراءة جديدة لتراثنا النقدي، كتاب النادي الأدبي الثقافي بجدة، السعودية، عدد 59، مج1 ص301.

[3] -ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر ط1 1966 ج1 ص 183.

[4] عبد العزيز عتيق: تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت –لبنان– ط3 1974 ص 27

[1] إلى غير ذلك، وربما جاء أيضا هذا الحكم وصفا عاما كالحكم على شعر شاعر بأنه أشبه (بمزادة أحكم خرزها؛ فهي لا تقطُر ولا تمطر) [2] وينسحب هذا أيضا على القرآن الكريم، حيث كانت النظرة إليه جزئية وعامة ثم تطورت إلى حد ما في القرن الثاني الهجري مع كتب التفسير، ثم أخذت أبعادا تحليلية عميقة لنص القرآن الكريم، والنص الشعري على السواء مع عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس، والزمخشري في القرن السادس، ثم توقفت، بعدهما، الجهود التحليلية للنص بطغيان النزعة التعليمية والعقلية.

3- العوامل المؤثرة في نشأة المنهج الأسلوبي:

لقد تضافرت عدة عوامل على نشأة المنهج الأسلوبي في تحليل النص الأدبي أهمها ما يلي:

أ- جمود البلاغة والنقد:

لقد أشرنا من قبل إلى أن الدرس التحليلي للنص قد توقف بعد عبد القاهر والزمخشري، ومال إلى الجمود، وبجموده انتقل الدرس التحليلي من مجاله التطبيقي المرتبط بالنص إلى مجال العلوم النظرية والاستدلالية. وذلك ابتداء من القرن السابع الهجري على يد أبي يعقوب السكاكي (ت626هـ) في كتابه (مفتاح العلوم) ثم عند الخطيب القزويني (ت 739هـ) في كتابه (الإيضاح في علوم البلاغة)، وقد كان هذا صورة مقابلة لما جرى في كثير من كتب النقد، حيث وجدنا فيه ما يسمى (قواعد الشعر) و(عيار الشعر) و(نقد الشعر) وما إلى ذلك. ومن ثم صارت البلاغة كالنقد معيارية في توجهاتها فهي لا يهمها في النص الأدبي إلا البحث عما هو كائن لما يجب أن يكون لأن غايتها الأساسية هي

---

[1] -المرجع نفسه، ص 26.

[2] -المرزباني (أبو عبد الله): الموشح، تحقيق: علي محمد البجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت) ص91.

إنتاج نصوص وفق قواعد وقوانين مما جعلها تبدو جامدة وجافة. ولعل مما زاد في جمودها أنها أصبحت تقترن عند كثير من البلغاء بمسحة دينية مقدسة لعلاقتها بالقرآن الكريم، وبالحديث النبوي الشريف. ومن ثم فإن أي محاولة لتطويرها أو الخروج عليها يعتبر مساسا بهذه القدسية الدينية.

ب- **عدم كفاءة المناهج السياقية:**

وأمام هذا الجمود الذي أصاب البلاغة وجعلها غير قادرة على أداء دورها في التحليل، كان لابد من التفكير في مناهج بديلة لمقاربة النص الأدبي، وبعث روح جديدة فيه. وهنا وجدنا مع مطلع العصر الحديث جملة من المناهج تمثلت في المنهج التاريخي، والنفسي، والاجتماعي. وتعرف هذه المناهج البديلة بالمناهج السياقية أو الثقافية، وذلك لما لها من صلة بالظاهرة الأدبية من حيث العوامل المؤثرة في نشأتها.

وقد كان الدارسون يتوخون من هذه المناهج أن تحقق طفرة نوعية في دراسة النص الأدبي، واكتشاف قيمته الفنية، ولذلك أقبلوا على احتضانها، والعمل على تطبيقها بشيء من الحماسة حتى أننا وجدنا لكل منهج منها عددا مهما من الدراسات تكاد تغطي كل عصور الأدب.

لقد كان هذا التصور قبل التطبيق، أما بعد التطبيق الفعلي لها أو التعرف عليها عن قرب عن طريق الممارسة، كما رأينا في الدراسات السابقة، فقد اتضح بصفة ملموسة، وبما لا يدع مجالا للشك أن دراسة الظاهرة الأدبية في ضوء تلك العوامل المؤثرة فيها، لم يكن مناسبا، ولذلك لم يتحقق من خلالها ما كان منتظرا وذلك لعدم كفاءتها الكافية للتعاطي مع الظاهرة الأدبية. ولعل أبرز ما يكشف عن قصورها وعدم كفاءتها ينحصر في أمرين هامين هما:

الأول أن الدراسة الأدبية مازالت تابعة لغيرها، وأن ما تتأسس عليه من نظريات وتصورات لم يحقق لها الاستقلالية المنشودة. وهذا أفقدها كثيرا من خصوصيتها وقدرا كبيرا من هويتها.

الثاني يتمثل في الإفراط في تطبيق المفاهيم، والأسس النظرية لهذه المناهج على الأعمال الأدبية بحيث جعلها تبدو، في نهاية المطاف، هامشية، وقيمتها الفنية باهتة وضائعة في رزمة المفاهيم والنظريات والمصطلحات التي لا تمت لها بصلة.

وقد تنبه كثير من الدارسين إلى عدم كفاءة هذه المناهج، ولذلك وجهوا لها كثيرا من النقد، منهم الدكتور أحمد درويش في قوله: «هذه المنهج جميعا نشطت مجتمعة أو متعاقبة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين في أوربا، وامتدت أصداء كثير منها إلى فكرنا النقدي العربي، ولكن التطبيقات العملية لبعض هذه المنهاج أثبتت أن خيط التوازن قد يفلت من يد الناقد أحيانا، فإذا به يجد نفسه وهو يطبق المنهج الاجتماعي أقرب إلى علم الاجتماع منه إلى الأدب، ويجد نفسه مع المنهج النفسي أقرب إلى علم النفس منه إلى الدراسات الأدبية الخالصة. وكذلك الشأن مع بقية المناهج»[1].

جـ- نشأة علم اللغة الحديث ودوره في نشأة المناهج النصية:

إن عدم كفاءة هذه المناهج في مقاربة الظاهرة الأدبية، وإبراز خصوصيتها الفنية على النحو الذي شرحناه، فتح الباب أمام الدارسين، مرة أخرى، للبحث عن مناهج أخرى تكون أكثر كفاءة، وملاءمة. وكانت نهاية بحثهم مع طائفة من المناهج، أطلق عليها المناهج النصية، وهي:

---

[1] -أحمد درويش: دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، مكتبة الزهراء-القاهرة-، (د.ت) ص 148-149.

- البنيوية.
- الأسلوبية.
- السيميائية.
- التفكيكية.

وقد سميت نصية نسبة إلى النص. وبهذا تكون الدراسة الأدبية قد انتقلت من المناهج السياقية أو الثقافية إلى المناهج النصية وذلك لارتباطها الوثيق بالظاهرة الأدبية، أو بالنص على وجه التحديد، وقد كان التعرف عليها ومحاولة تطبيقها: يمثل تحولا كبيرا إن لم نقل يمثل ثورة منهجية في عالم الدراسة الأدبية.

أما الأسباب التي جعلت هذه المناهج أكثر ملاءمة وأهمية للدراسة الأدبية من غيرها السياقية، فإن ذلك راجع إلى أن هذه المناهج قد ارتبطت بتطور الدراسات اللغوية في مطلع القرن الماضي، وبما طبق فيها من مناهج علمية دقيقة. وفي هذا يجمع كثير من الدارسين على أن هذا التطور قد اقترن بجهود العالم السويسري؛ فرديناند دي سوسير، وذلك من خلال كتابه (محاضرات في علم اللسان العام) الذي ظهر سنة 1916 بعد وفاته بثلاث سنوات.

لقد احتوى هذا الكتاب على كثير من المفاهيم والنظريات غير المسبوقة في تاريخ نشأة اللغة وتطورها مثل: ثنائية اللغة والكلام، وثنائية: الدال والمدلول، وثنائية: علم اللغة التاريخي وعلم اللغة الوصفي وغيرها. ولذلك أثارت اهتمام الدارسين في الحقل اللغوي، وغيره، وكانت سببا في نشأة كثير من المدارس والاتجاهات اللغوية والأسلوبية كما يقول محمد الشاوس: «لقد لاقت آراء سوسير ونظرياته، في النصف الأول من القرن العشرين من النجاح قسطا عظيما. بين عدد كبير من الدارسين، وكانت معينا لعدد من المدارس قامت على

المبادئ النظرية التي أرسى سوسير قواعدها، والأسس المنهجية التي سطر معالمها ووضعها»[1]

ولعل أهم ما جاء في هذا الكتاب هو إرساء منهج علمي لدراسة اللغة باعتبارها ظاهرة مستقلة عن غيرها، وقد مكنه هذا من أن يخلصها «مما كان يشوبها من مباحث غير لغوية»[2] كما مكنه أيضا من أن يحدد مجالها، وموضوعها بدقة كما جاء في مقولته الشهيرة : «إن موضوع الألسنية الحقيقي والوحيد إنما هو اللغة في ذاتها ولذاتها»[3].

ولهذا قام علم اللغة الحديث –كما يقول الدكتور عبده الراجحي– «على أساسين : أولهما أنه علم (Science) وثانيهما أنه مستقل (Autonomous)، ولعل السبب الأول في هذين الأساسين أن أصحابه أرادوا أن يبعدوه عن كثير من العلوم»[4].

وبالطبع فقد كان لهذا التصور الواضح أثره الإيجابي في النظر إلى الظاهرة الأدبية، وفي طريقة التعامل معها، فهي أولا ظاهرة مستقلة، وهذا ما كانت تطمح إليه، وتسعى إلى تحقيقه، وثانيا أنها تدرس بمنهج علم اللغة.

ولما كانت اللغة هي القاسم المشترك بين علم اللغة، والظاهرة الأدبية، فقد اعتبرت هذه الظاهرة امتدادا طبيعيا لها، وذات صلة وثيقة بها. غير أن الغاية بينهما مختلفة. فاللغة العامة تدرس كظاهرة محايدة، وهي تبدو فيما يسميه

---

[1] –محمد الشاوش: سوسير والألسنية ضمن كتاب: أهم المدارس اللسانية، المعهد القومي لعلوم التربية، تونس 1986 ص5

[2] –المرجع السابق، ص 15.

[3] –المرجع السابق، ص 14 .

[4] –عبده الراجحي: علم اللغة والنقد الأدبي (علم الأسلوب) مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مج1، العدد الثاني 1981، ص 116.

سوسير (La Langue) أما اللغة في الظاهرة الأدبية: فهي غير محايدة أو هي لغة فردية خاصة. وهي تبدو في الكلام أو ما أطلق عليه سوسير (La Parole) وهي في هذا تعتبر مجازية بالنظر إلى ما يحدث فيها من انحرافات عن النسق اللغوي السائد ولذلك وجب أن تدرس الظاهرة الأدبية بمنهجية تتحقق فيها الصفة العلمية: وهي الوصف والتحليل، لأجل اكتشاف قيمتها الفنية.

أ-المنهج **الأسلوبي**: أسسه وطرقه الإجرائية في تحليل النص

وقد أطلق على العلم الذي تنسب إليه هذه المهمة: علم الأسلوب (La Stylistique) أو الأسلوبية. ومن هنا اعتبر هذا العلم فرعا من علم اللغة. وفي هذا يقول الدكتور عبده الراجحي: «علم الأسلوب، إذن، فرع من علم اللغة»[1] ولذلك قيل في تعريفه إنه: «علم لغوي حديث، يبحث في الوسائل التي تكسب الخطاب الأدبي خصائصه التعبيرية التي تميزه عن غيره»[2] كما قيل أيضا في تعريفه أو في تعريفها (الأسلوبية): «تعرف الأسلوبية بأنها منهج لساني إذ تقوم على البحث فيما يتميز به الكلام الفني عن بقية مستويات الخطاب أولا وعن سائر أصناف الفنون الإنسانية ثانيا، فالأسلوبية وصف للنص الأدبي حسب طرائق مستقاة من علم اللسان»[3] . وفي ضوء ما تقدم يمكننا استخلاص ما يلي:

- أن علم الأسلوب فرع من علم اللغة الحديث.
- أنه منهج لساني أو أسلوبي.
- أنه منهج وصفي تحليلي.
- أن النص الأدبي هو محور اهتمامه ولا شأن له بما هو خارج عنه.

---

(1)- المرجع نفسه ، ص116

(2) -عدنان بن ذريل: اللغة والأسلوب: اتحاد الكتاب العرب، دمشق ط1 1980 ص 140

(3) -عبد السلام المسدي: النقد والحداثة، دار الطليعة، بيروت-لبنان ط1 1983، ص 58.

ولا خلاف في أن ما ذكر سابقا يعتبر من السمات الأساسية للمنهج الأسلوبي في دراسة النص الأدبي. وفي هذه السمات ما يوضح الاختلاف الجوهري بين علم اللغة، وعلم الأسلوب. فعلم اللغة -كما يقول عبده الراجحي- :«يدرس (ما) يقال في اللغة، أما علم الأسلوب. فيدرس (كيف) يقال ما في اللغة»[1] وهو نفس الفارق الذي عبر عنه ريفاتير بقوله : « إن اللغة تعبر؛ والأسلوب يبرز»[2].

هذا باختصار، ولهذا المنهج خطوات لا بد من مراعاتها في مقاربة النص الأدبي، وهي:

أ-اختيار النص:

يتضح لنا من الدراسات التي تناولت النص الأدبي بالتحليل، أن عملية اختياره تمثل حجر الزاوية في هذا التحليل، وذلك انطلاقا من ضرورة الوعي بأهمية النص، وبقيمته الفنية، فليس كل نص جديرا بالاختيار والتحليل. ولعل المعيار الذي يقودنا إلى ذلك، بصفة مبدئية، هو المعيار الذاتي، وهو يتمثل في ذوق الدارس وخبرته. فإذا شعر هذا الدارس بأن النص الذي بين يديه قد خلق لديه قدرا من الدهشة والإثارة بلغته وأسلوبه فهو، بالتأكيد، نص ينطوي على قيمة فنية عالية تؤهله لأن يكون محل تحليل. ويمكننا تحديد بعض ملامح الدهشة والإثارة فيما يلي:

1. الإحساس بالجاذبية نحو النص.
2. طرافة الموضوع أو الفكرة.
3. جدة اللغة والأسلوب.

---

[1] -عبده الراجحي: المرجع السابق، ص 117.

[2] -عدنان بن ذريل: المرجع السابق، ص 143.

ولعل في ما قاله الدكتور شكري عياد وجاء تحت عنوان: (كيف نقرأ النص الشعري) في كتابه : (مدخل إلى علم الأسلوب) وكان بصدد اختيار طائفة من النصوص لشاعرين معاصرين هما: إبراهيم ناجي، وأبو القاسم الشابي، ما يوضح أكثر ما ذهبنا إليه، إذ يقول: «النصوص التي اخترناها للدراسة التطبيقية كلها من العصر الحديث، بل من شاعرين اثنين متعاصرين تجمع بينهما كتب تاريخ الأدب في مدرسة واحدة. ولكننا لم نقصد بهذا الاختيار أن نقوم ببحث تاريخي في الشعر الوجداني الحديث أو مدرسة أبو للو بالذات، فقد استبعدنا كل الاهتمامات التاريخية من دراستنا، وإنما قصدنا إلي شيء واحد وهو أن تكون هذه النصوص قريبة، حسا ولغة، إلى فهم القارئ الشاب. أما حسا فلأن قراءة النص الأدبي لا تستحق أن تسمى قراءة ما لم يجد القارئ نفسه وقد حملته سحابة وراء الكلمات، وأما عن اللغة فقد عرفنا أن خصوصية الشعور لا تتحقق للقصيدة إلا من خلال خصوصية التعبير، فلا بد للشاعر من أن يصدمنا مرة بعد مرة بأشكال من اللغة غير متوقعة حتى نعي ما يريد أن يقول»[1] .

إن الشروط الواردة في هذا النص عن اختيار النص الأدبي كثيرة، وقد ذكرنا بعضها آنفا، ومع ذلك فهي ليست كل الشروط المطلوبة فيه ولكن ما ذكر منها يشير إلى أن النص الأدبي المتميز هو ما تحققت فيه صفة (الإبداع) [2] بمعني إنشاء الشيء على غير مثال سابق أو غير مألوف أو عادي، ولا تتأتى له هذه الصفة إلا حين تكون للغته طرافة وجدة، أوما عبرعنه الدكتور شكري عياد (بالصدمة غير المتوقعة) التي تبدو تجلياتها في الأشكال التعبيرية للغة وللأسلوب. ولعل ما عبر عنه الدكتور شكري عياد بالصدمة غير المتوقعة هو ما

---

[1] -شكري عياد: مدخل إلى علم الأسلوب، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، - السعودية- ط.1 1982 ص 67.

[2] -يراجع لسان العرب لابن منظور مادة (بدع).

عبر عنه جاكبسون (بالمفاجأة) وهي عنده عبارة عن (تولد اللامنتظر من خلال المنتظر)[1] فهما، إذن، يلتقيان في نقطة واحدة وهي ما يمكن التعبير عنه (بوهج النص) وليس هذا ببعيد عما قاله بعضهم في تعريف الأسلوب بأنه (ما ليس شائعا ولا عاديا ولا مصوغا في قوالب مستهلكة)[2] وربما كان التعبير بكلمة (الانحرافات)[3] هو الذي يشمل كل ما سبق ذكره من الصدمة والمفاجأة، وغيرهما ولذلك عرف الأسلوب بأنه (انحراف) أو (اختيار) أو (إضافة). وجميع الدارسات التي عالجت النص ذكرت هذه الأنواع الثلاثة من الأساليب ولو بدرجات متفاوتة على أنها تعكس صفة الإبداع في النص المختار.

وبناء علي هذا فلا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن اختيارات الدكتور شكري عياد، وكذلك اختيارات غيره من الدارسين الذين سيأتي الحديث عنهم قد جاءت محققة للمواصفات السابقة، ولو بنسب متفاوتة.

ولا تمثل عملية الاختيار إلا خطوة وتتلوها خطوتان أخريان هما:

ب – تحليل عنوان النص.

ج – تحليل النص إلي ثلاثة مستويات هي:

1- المستوى الصوتي.
2- المستوى التركيبي.
3- المستوى الدلالي.

---

[1] -عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، الطبعة السابقة ص 82.

[2] -حماسة عبد اللطيف: ظواهر نحوية في الشعر الحر، دراسة نصية في شعر صلاح عبد الصبور، مكتبة الخانجي، القاهرة: ط1 1990 ص 137 هامش.

[3] -شكري عياد: المرجع السابق، ص 68.

وقد قدمت دراسات كثيرة وفق هذه المستويات منها على سبيل المثال:

1- خصائص الأسلوب في الشوقيات 1981 محمد الهادي الطرابلسي .

2- مدخل إلى علم الأسلوب 1982 شكري عياد.

3- مستويات البناء الشعري عند إبراهيم

أبي سنة-دراسة في بلاغة النص 1998 شكري الطوانسي

4- شعر إبراهيم ناجي – دراسة أسلوبية بنائية 2008. شريف سعد الجيار.

ففي هذه الدراسات نجد محاولة للتقيد بالمنهج الأسلوبي في تحليل النص الأدبي، والالتزام فيه بالمستويات الثلاثة، وإن كان بعضها قد جاء خاليا من بعض المستويات مثل المستوى الدلالي، وتعويضه بالمعجم الشعري كما في(مستويات البناء الشعري عند إبراهيم أبي سنة) وكذلك في(شعر إبراهيم ناجي – دراسة أسلوبية بنائية) كما أن بعضها تضمن الحديث عن الصورة الشعرية. وكأن الحديث عن المعجم ثم عن الصورة يغني عن المستوى الدلالي في التحليل. ولابد هنا من الإشارة إلى أن اختفاء بعض المستويات من الدراسة الأسلوبية وتعويضها بأخرى لا يعني، بحال، انتهاك المنهج الأسلوبي، إنما يعني أن هذا المنهج لديه من المرونة والقدرة على التجديد في خطواته الإجرائية في تحليل النص الأدبي ما يجعله مواكبا لمقتضيات التطور وإلا صار كسائر المناهج التي أدركتها الشيخوخة مثل البلاغة التي جمدت لم تعد قادرة على استيعاب المستجدات في مجال التحليل الأسلوبي للنص الأدبي. ولعل الأمر المهم في هذا هو الوفاء بالخطوط العامة للمنهج، بحيث يقدم لنا، في النهاية، رؤية تحليلية موضوعية شاملة لبنية العمل الأدبي.

وإذا كانت غالبية الدراسات السابقة قد تناولت الإنتاج الإبداعي للشاعر، وحاولت أن تقدم مقاربة أسلوبية لهذا الإنتاج، فإن بعضها قد اقتصر على تناول نماذج مختارة من الإنتاج كما هو الحال عند الدكتور شكري عياد في كتابه

السابق الذكر، حيث خص القسم الأول منه للجانب النظري للأسلوب أما القسم الثاني فقد قدم فيه نماذج مختارة لشاعرين معاصرين هما: إبراهيم ناجي وأبوالقاسم الشابي كما سبقت الإشارة. وهذا يعطي الانطباع عن إمكانية الدارس في أن يتناول ما يشاء من إبداع الشاعر، فقد يكون الإبداع كله، وقد يكون بعضه سواء في صورة دواوين أم في صورة قصائد. كما يمكنه أن يتناول مستوى واحدا من المستويات الثلاثة السابقة على نحو ما جاء في الدراسات التالية :

1. اللغة والدلالة في الشعر -دراسة نقدية في شعر السياب وعبد الصبور. علي عزت.
2. الإيقاع الصوتي في شعر شوقي الغنائي منير سلطان.
3. دلالة الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم خالد قاسم بني دومي.

كما يجوز له أيضا أن يدرس ظاهرة أسلوبية واحدة عند شاعر أو عند عدد من الشعراء أو في غير ذلك كما في الدراسات التالية:

1- الشرط في القرآن عبد السلام المسدى ومحمد الهادي الطرابلسي.
2- أساليب الإستفهام في الشعر الجاهلي حني عبد الجليل يوسف.
3- البديع في ضوء أساليب القرآن عبد الفتاح لاشين.

على أنه ومهما اختلفت هذه الدراسات، وتباينت اتجاهاتها في تناول الظاهرة الأدبية، فإن ما اتسمت به على وجه الإجمال هو أنها التزمت بنسبة عالية بمتطلبات المنهج الأسلوبي في التحليل، ولم يكن ذلك إلا معبرا عن الإصرار من قبل الدارسين على الوفاء بشروط هذا المنهج لتخليص الدراسات الأدبية من الهيمنة السابقة للمناهج السياقية والمعيارية والذاتية وغيرها، ومصداقا لهذا ما قاله الدكتور علي عزت :

« وعلى كل، فإن ما ينبغي أن نصر عليه في تقويمنا الأدبي هو ألا نفرض أي قانون أو حكم على العمل الفني من خارجه ، إذ أن كل عمل فني له قوانينه

الخاصة به يتعين على الناقد أن يستنتجها من داخل العمل نفسه، كما يجب علينا ألا نقترب من العمل بأية أفكار مسبقة عنه أو عن أسلوبه. ذلك أن مهمتنا كدارسي أساليب أو نقاد هي أن نستقصي ونصف الحقائق الملموسة الملحوظة في العمل الذي نقومه، وأن نبرهن على استنتاجاتنا بإبراز شواهد من العمل ذاته، بذلك نكون قد أفلحنا في الوصول إلى نقد علمي موضوعي»[1].

ومن أجل تحقيق هذه الغاية العلمية في المنهج الأسلوبي وجدنا كثيرا من الدراسات تستعين بالإحصاء في تحليل الظاهرة اللغوية في العمل الأدبي، واستعمال الجداول والنسب المئوية في ذلك، وإن كانت هناك اعتراضات على الاستعانة بالإحصاء في دراسة الظاهرة الأدبية لأسباب سنوضحها فيما بعد.

وبالإضافة إلى هذا فإن الدراسات السابقة قد التفتت إلى قضية (التناص) باعتبارها قضية أسلوبية تبدو تجلياتها في عملية الإبداع. ولا بد من معالجتها على هذا الأساس. وقد لاحظنا أن معالجتها جاءت ضمن الأعمال الأدبية لمبدع واحد أو لدى عدد من المبدعين، وفي فترات زمنية قصيرة أو طويلة كما في هاتين الدراستين:

- التناص عند شعراء صنعة البديع العباسيين ياسر عبد الحسين رضوان.
- أشكال التناص الشعري . دراسة في توظيف الشخصيات التراثية . أحمد مجاهد.

ب- تقويم المنهج الأسلوبي في تحليل النص الأدبي.

ذلك بإيجاز ما تم إنجازه في تحليل النص الأدبي وفق المنهج الأسلوبي. ومن الملاحظ أن بدايات هذا الإنجاز كانت في أواخر السبعينات من القرن الماضي. وقد ظلت في تصاعد مستمر حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم.

---

[1] - علي عزت: اللغة والدلالة في الشعر - دراسة نقدية في شعر السياب وعبد الصبور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1 1976 ص10.

وهذا يعكس، دون شك، التطور الذي حصل في تطبيق هذا المنهج منذ ذلك التاريخ. ولم يكن هذا التطور ينحصر في الجانب الذي يتعلق بالكم أو بحجم الدراسات، وإنما بالنوعية كذلك. وهذا يعني أن لعامل الزمن دورا في الوعي به ثم بتعميقه بالتطبيق. وقد ساعد على هذا انحسار البنيوية التي كان نجمها ساطعا حتى أواخر الستينات وبداية السبعينات إلى جانب سلبيات البلاغة والنقد وسائر المناهج الثقافية كما رأينا سابقا.

وعلى الرغم من أن هذا المنهج قد فرض نفسه، وحقق إنجازات هامة في حقل الدراسة الأدبية وذلك للمزايا التي يتمتع بها، فإن الاعتراضات عليه كثيرة، ومن الأهمية أن نعرض لها بإيجاز في ثلاثة أمور:

الأول: يتمثل في أن هذا المنهج ليس وليد البيئة العربية وثقافتها، وهو لهذا يعتبر نبتة غريبة عنها. ومن ثم فهو لا يصلح لها. هذا فضلا عن أنه يمثل التبعية الثقافية والفكرية للآخر أو للبيئة الثقافية التي انحدر منها. والناظر في هذا الموقف لا يرى فيه إلا دوافع التعصب الذي يتستر تحت شعار الدفاع عن الهوية الثقافية والفكرية. ولعل أصحابه قد نسوا أو تناسوا أن كثيرا من أوجه حياتنا الثقافية والعلمية ليست من صنع واقعنا الثقافي والفكري والعلمي. ومع ذلك قبلناها وتعايشنا معها كنوع من الضرورة أو نوع من المثاقفة الطبيعية. والدليل على ذلك أن العرب القدماء سبق لهم أن تعاملوا مع أكثر من ثقافة وحضارة بعقلية منفتحة، وأفادوا منها ثم طوروها فأفادوا بها غيرهم، وآثار ذلك مازالت ماثلة في أكثر من حقل معرفي وإنساني.

ثانيا: إن قبول هذا المنهج في الدراسة الأدبية يعني التخلي عن الموروث البلاغي والنقدي. وفي هذا مساس بالشخصية التراثية: الأدبية والفكرية. ومن هذا المنطلق، وتحت شعار المحافظة على الشخصية التراثية، هوجم كتاب: الأسلوبية والأسلوب للدكتور عبد السلام المسدي، وكان قد ظهر في ستة

1977. ودعا فيه إلى التخلي عن البلاغة العربية. ويمكن ملاحظة هذه الدعوة من العنوان الفرعي للكتاب وهو: «نحو بديل ألسني في نقد الأدب»، ثم من كثير مما أورده على سبيل الموازنة بين الأسلوبية والبلاغة منها قوله: « أما الأسلوبية والبلاغة كمتصورين فكريين فتمثلان شحنتين متنافرتين متصادمتين لا يستقيم لهما تواجد»[1].

إن هذا الموقف الرافض لكل دعوة للتجديد والاستعانة بمنجزات الآخر، شبيه بالموقف الذي حدث مع طه حسين في أواخر العشرينات من القرن الماضي بكتابه: (في الأدب الجاهلي). وبالطبع فما كان لهذا الموقف إن يكون لو نظرنا إلى ما حدث على أنه نوع من حرية التفكير والتعبير بعيدا عن أي مزايدة أخرى تلبس جلباب المحافظة على التراث.

ثالثا: إن الاعتراض على هذا المنهج كان جزئيا وهو يتمثل في رفض الإحصاء في الدراسة الأدبية أو على الأقل التخفيف منه فيها بدعوى أنه يثقلها، من جهة، بالبيانات والأرقام والنسب وما إلى ذلك، وهذا يفقدها حيويتها، ويجعلها جافة، ومن جهة أخرى، أنه لا يترجم بدقة ما تحمله الكلمات والعبارات من ظلال للمعاني، ومن الصور الخيالية، والانفعالات الإنسانية. في هذا يقول الدكتور عبده الراجحي: «والذي يقرا الآن بعض الدراسات الأسلوبية مما يطبق الإحصاء تطبيقا غالبا سوف يصطدم بأجزاء كبيرة منها تملأها (الجداول) الإحصائية والأرقام مع التقدم الآن إلى الاستعانة بالحاسبات الآلية، مما يضفي على العمل طابعا غريبا، ومما يشعر دارسي الأدب على العموم أن هذا الاتجاه يستعمل لغة غير مفهومة لأنها غير التي ألفوها في تناول العمل الأدبي»[2].

---

[1] -عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، الطبعة السابقة ص 48.

[2] -عبده الراجحي: المرجع السابق، ص 118.

ولنا بعض التحفظات على ما ذكر على أسلوبية الإحصاء، ولكن المقام لا يتسع لها، غير أن هذا لا يمنعنا من القول إن الإحصاء مهما قيل فيه، ومهما وجهت له من انتقادات، فإنه يبقى سمة بارزة في المنهج الأسلوبي في تحليل النص الأدبي. وإذا ما قسنا ما حققه هذا النص من خلال الإحصاء، بالوضع الذي كان عليه سابقا، فلا مجال، عندئذ، للمقايسة. ولذلك يعتبر الاتجاه الإحصائي في الأسلوب، مكسبا كبيرا للدراسة الأدبية. وما يذكر عن بعض السلبيات فيه، لا يقلل من أهميته لها.

خاتمة:

والخلاصة أن المنهج الأسلوبي حديث العهد في ثقافتنا النقدية المعاصرة كما رأينا سابقا، وما تحقق من خلاله من إنجازات في الدراسة الأدبية كان على درجة كبيرة من الأهمية. وهذا أمر لا يختلف عليه الدارسون من ذوي النظرة

الموضوعية. ولكن بالنظر إلى حداثة عهده، وإلي ما هو منتظر منه أن يحققه، فإنه مازال يحتاج إلى المزيد من الوعي به حتى تترسخ أقدامه في بيئتنا الثقافية والفكرية، وبخاصة على مستوى التطبيق.

وإذا كانت هناك جوانب لم تكتمل فيه، وهي تعتبر نقائص، كما يرى بعض الدارسين، فإنه بالإمكان تفادي هذه النقائص عبر تراكم التجارب والخبرات، ثم إنه ليس المنهج الوحيد الذي ليس فيه نقائص، ولكن إذا ما فاضلنا بينه وبين غيره من المناهج، فإنه يظل المنهج الأقرب إلى طبيعة الظاهرة الأدبية ومكوناتها، ولعل«الأحلاف» التي كان يعقدها النص الأدبي مع غيره من المناهج البعيدة عنه -كما يقول الدكتور محمود الربيعي- قد انتهت إلى غير رجعة، كما أن الموائد التي كان يلتقط فتاته منها رغما عنه، قد ولت، ولن تعود، وذلك بانتمائه إلى رحم نزل منه، هو علم اللغة. ويكفيه فخرا أنه صار يحتضنه، ويعترف بشرعيته علم آخر هو علم الأسلوب الذي يعد الابن الشرعي لعلم

اللغة. ومادامت طاقاتنا محدودة، ومستوانا الفكري لا يؤهلنا لأن ننتج منهجا خاصا بنا، فلا مناص لنا من الإذعان لغيرنا فيما نستمده منهم، ولعل العيب ليس في هذا الإذعان، وإنما في الاستمرار فيه دون تقديم البديل. وكفانا تعصبا ونواحا وجلدا للذات دون عمل.